الفصل الثالث

مشكلات متجددة.

obeikandl.com

المبحث الأول: الوحي:

توجد اختلافات بين الأديان في طبيعة الوحي ووسائله، كما توجد أشكال متنوعة للوحي، منها أسلوب الوحي التقليدي: اليهودي – المسيحي – الإسلامي، وهناك اختلافات ليست بالقليلة بين الديانات الإبراهيمية التي تنتمي إلى مسار واحد من حيث النشأة، لكنها اتخذت أثناء نموها وتجليها في التاريخ طبائع مختلفة تصل أحياناً إلى حد التعارض.(١)

وهناك أديان أخرى لا تلجأ إطلاقاً إلى الوحي، كالبوذية التي تبدأ من نقطة قيام بشرية محضة هي إلهام الحكيم بوذا.

" إن تأسيس أي دين لابد أن يتم عبر كتاب مقدس، وهذا الكتاب هو الوحي الإلهي في شكله المقروء أو المسموع في المراحل الشفهية لبعض الكتب المقدسة".(٢)

ويتكون الوحي كرسالة من أربعة مكونات رئيسة هي: مرسل ومستقبل ووسيط ورسالة، جوهر النبوة هو نقل الرسالة، وهذا ما أكده القرآن الكريم حين قال للرسول في المرحلة المدنية: " يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ "(المائدة:٦٧) وفي تلك الآية حثٌّ من المرسل إلى المستقبل بضرورة التبليغ للناس، فإن كان الناس على ضلالة وانحراف بشكل معين لا يستقيم مع المرجو منهم لتحقيق الخلاص الأخروي، فلابد من تبليغهم مراد الله تعالى ليحقق لهم الخلاص المنشود، وهذه الفكرة نجدها في أغلب الكتب والرسالات الدينية، وقد يكون الرسول في حالة من الخشية والخوف من أن يصدم قومه بأوامر جديدة تنهاهم عن لذائذهم، فالخطاب يجئ مشددا عليه بضرورة إعلام الناس بمطلوب ربهم ، وقد مرّ بنا وجود مراجعات كثيرة بين المستقبل والمرسل في أمور تعبدية كالصلاة التي كانت ٥٠ وبعد عدة مراجعات صارت ٥ فقط.

١- لا يخفى في هذا السياق أن قضية الإيمان بالوحي في ذاتها هي قضية الإيمان بالنبوة ، فبنو إسرائيل (اليهود والنصارى) لا يعترفون بأن الله أوحى إلى محمد(ص) ولو آمنوا بذلك لانتفى التعارض بينهما تماماً، وكذا يوجد الكثير من الأعراب لا يرون أن هناك وحياً تنزل على قلب الرسول كما أشاع في أتباعه، ومن ثمّ لجأوا إلى الافتراء كطلحة بن خالد(صغروا اسمه وقالوا: طليحة بن خويلد لادعائه النبوة)، ومسيلمة الكذاب وبعض المسلمين أنفسهم في مرحلة الصراع على الخلافة والحكم ، وهذه قضية لها دراسة أخرى ، ليس مكانها هنا.

٢- د. محمد عثمان الخشت: للوحي معانٍ أخرى ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ٢٠١٣م.صـ١١.

وهناك من الباحثين من يفرِّق بين طبيعة الوحي الإبراهيمي قبل محمد(ص) موسى – عيسى، وبين محمدٍ، فقد كان الوحي قبل الإسلام إصغاءً، وسنجد أن اليهود لما سألوا عن الوسيط الذي يتنزل على الرسول بالرسالة وعلموا أنه جبريل أنكروه وأكدوا أنه عدوهم، وفي هذا تنزل الوحي قائلاً:" قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ "(البقرة:٩٧-٩٨) فعدو الوسيط عدو لطرفي الرسالة المرسل والمستقبل، وهذا ما أخبرت به الآيات على تكرار نزولها.

وقد اختلف بهذا طبيعة الوحي الإسلامي؛ فالسمة الأساسية والمميزة له أنه ليس إصغاءً، ولكن استقبال الرسول لرسالة سماوية من الإله عن طريق وسيط أو وسطاء.

ومن خلال فهمنا للآيتين السالفتين نرى أن النبوة تقوم على الإتباع، غير المشروط بشروط، ولابد أن النبوة وحدها لا تأتي برسالة أو تشريع جديد، وعلى هذا كان محمد نبياً إذ أتبع تعاليم الديانيتين السابقتين(اليهودية – المسيحية) كما مرّ بنا في وجوه التشابه بين القرآن والتوراة، ومن هنا فقد أكد الفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا، ثم زاد محمد عن مرتبة النبوة بأن بعث برسالة جديدة ومعه كتاب موحى إليه (سبق الحديث عن مصدره) يهيمن على ما قبله ويضيف إليه بعض الأبعاد الجديدة، وفي هذا يقول الوحي:" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ "(المائدة :٤٨) ويؤكد الوحي في أغلب الآيات أن سبب نزول كتب جديدة ووحي جديد هو اتباع أصحاب الرسالات الهوى المضل والمضلل والذي يُخرِجُ الأمور عن صوابها وعن جادة طريقها، ومن هنا فإن الرسالة الأخيرة ضمنت لنفسها طرقاً أخرى للحفظ من الأهواء فقال الوحي:" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ "(الحجر:٩)

غير أننا لأسباب سياسية وجدنا هناك اختلافات عديدة في الذكر القرآني بين الفِرق المتصارعة من شيعة وخوارج وأهل بيت وأهل خلافة وملك وغير هذا، وكلٌ يدعي أنه وحده يفهم الوحي جيدا.

والوحي باعتباره كتاباً مقدساً لم يكن بدعاً على الديانات السماوية؛ فقد عرفت البشرية الكتب المقدسة من قبل، ولعلها عرفتها قبل التنزيل الإلهي بمئات السنين، كما نجد ذلك في بلاد الهند حيث كتب الفيدا الهندية، وفي مصر القديمة حيث كتاب الموتى المصري والبرديات المصرية، وتلك الكتب

جميعها تعتبر من أقدم الكتب المقدسة التي وصلت إلينا.

وفي بحثه السالف الإشارة إليه أكد الدكتور محمد عمارة أن اللغة التي نزلت بها التوراة هي الهيروغليفية وهي تعني في مجال استخدامها المصري القديم تعني الكتابة المقدسة، وكذلك فإن السنسكريتية تعني الكلام المقدس. أي أن تلك اللغات تقدست بسبب وجود ما بها من تعاليم لم تدع أنها جاءت عن طريق وحي أو رسالة سماوية، فالباحث لا يعتمد أن الفراعنة مثلاً وهم – آلهة أو أنصاف آلهة- لم يوحوا بشيء للناس، بل كتب تلك الكتب الكهنة وهم طبقة المفكرين، أي أن تلك الكتابات المقدسة جهد بشري في الأساس، وهذه الأسفار قديمة قدم التأريخ البشري، يتحدث ول ديورانت عن أسفر الأوبانيشاد فيقول: "لو استثنينا النتف التي خلفها لنا بتاح حوتب (المصري) في الأخلاق، كانت أسفار الأوبانيشاد أقدم أثر فلسفي ونفسي موجود لدى البشر، ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق ودءوب، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب محاولاً أن يفهم العالم وما بينهما من علاقة، إن أسفار الأوبانيشاد قديمة قدم هومر، ولكنها كذلك حديثة حداثة كانط."([1])

وبالنسبة لقارة آسيا التي تحدث عنها هيجل طويلاً في كتابه العالم الشرقي وتوقف عند الصين والهند وفارس الإمبراطورية المترامية الأطراف، فإن الفكر الديني هو المسيطر، وأهم ما ألاحظه حول هذا الفكر الديني استقراره، حيث سيطرت الأوبانيشاد على فلسفة ديانة الهند لمدة ثلاثة آلاف سنة تقريبا.وقال العلماء إن هناك صرفة من الله للناس أن يأتوا بمثل الكتب المقدسة، وهو ما قال به النظام والمعتزلة بالنسبة لوجوه إعجاز القرآن الكريم، وقد سبق أن أشرنا لذلك.

وتعتمد الديانات الهندية عدة لطرق لتحقيق الوحدة المتكاملة مع براهمان اللانهائي هو اتباع طريقة اليوجا وهي: التحكم في النفس، السيطرة على الحواس، التأمل، التركيز، التفكير العميق، الأخذ بالموضوع. وقد أخذ ولتر ستيس أغلب مادته العلمية في كتابه التصوف والفلسفة من الكتب الهندية القديمة والعادات اليومية لتصرفات الناس .

ومن مكرور القول أن هناك تشابهات متعددة بين الكتب المقدسة وقد ناقشناها سلفاً وأورد بعض الأمثلة هنا:

تشابه القرآن مع البهاجافاد- جيتا الهندية، في الحثّ على القتال، حيث:

جاء في البهاجافاد – جيتا الهندية أن: " الحكيم الحق يجب ألا يحزن لا على الأحياء ولا على الأموات؛

١- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة :زكي نجيب محمود، محمد بدران ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، جـ٣، صـ٢٥-٤٣، مقتبسة من كرشنا ومور ،الفكر الفلسفي الهندي، صـ٦٦-٧١.

لأن الروح تنتقل من جسد إلى آخر، وهي لا تُنفى بالقتل؛ لأنها أزلية أبدية، ومن ثمّ فإن الروح لا تموت، ثم إن المحارب المدافع عن الحق إن قُتل دخل الجنة، وإن انتصر فالنتيجة هي مملكة يستحقها فعلاً.

وهنا نلاحظ تشابهاً بين الحجتين السابقتين للحثّ على القتال من أجل الحق في البهاجافاد – جيتا، وبين الحجتين اللتين يطرحهما القرآن، أما حجة القرآن الأولى في أن الذي يُقتل في سبيل الله لا يموت، بل هو حي عند ربه يرزق وينعم، يقول القرآن الكريم: " وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ " (آل عمران: ١٦٩-١٧٠)

والهند تؤكد على نظرية تناسخ الأرواح، غير ما يؤكده القرآن الكريم، ولا نقول بوجود تأثر أو تأثير بينهما، وإنما فقط يوجد تشابه، فمحمد لم يطلع على اللغة السنسكريتية.(١)

كما توجد مظاهر أخرى للتشابه بين تلك الديانة الهندية القديمة والنصرانية في وجوه عدة منها أن: "كرشنا هو تجسيد للإله فيشنو، مثلما المسيح هو تجسيد الله، وسبب التجسيد في الحالتين هو إنقاذ وخلاص البشرية، وإذا كان كرشنا، وكان كرشنا يقول لأرجونا "ذاتي الخاصة تدعم الخلائق وتساعدها دون أن تحيا فيها" هي تجعلها تعيش، "فإنه يمكن أن نقارن قوله بمبحث القديس توما الأكويني "الله في كل الأشياء كسبب كينونة كل الأشياء" زد على ذلك أن فشنو محبة: " أنا في المخلوقات تلك المحبة التي ليست إلا الخير"، وكذلك فإن الله محبة في المسيحية"(٢) .

نستنتج من ذلك أن الحب الإلهي يمثل جوهر تعاليم كرشنا مثلما يمثل جوهر تعاليم المسيح في الأناجيل الحالية، فاللغة الوحيدة التي تجمع بين الله والإنسان هي الحب.

ولعل في هذا القول المزيد من الصوفية، وهي معتمدة كلية في التفكير الهندي والحالة الدينية التي تعبر عن التدين هي اليوجا، ولعل الصوفية تحتاج إلى سفر خاص بها، يفصل أبعادها ويضيء جنبات الإظلام عندنا في وجوه التعريف بها .

هكذا وُجِدَ التشابه بين الديانات وفي الكتب المقدسة سواء السماوية أو البشرية، وقد سبق وقلنا

١- د. محمد عثمان الخشت: للوحي معانٍ أخرى، صـ٥٩.
٢- المصدر السابق: صـ ٦١.

إن مرد ذلك لوجود الرغبة في الوصول إلى الدرجة الفضلى للعبادة ولإعمار الأرض، ومن يُصدر التشريعات الدينية للناس سيختلف عمن يصدر التشريعات السياسية(١).

وقد كانت هناك حروب بين الرسول وبني إسرائيل اليهود في المدينة وخيبر، وقد كانوا مختلفين في الوحي والتصديق به، فكما أن محمداً(ص) كان يصدق بما أُنزل على موسى وغيره من الأنبياء، فإنه كان يؤمن بنصوص قرآنية كثيرة بأنهم قد حرفوا الكتاب وصار تبعاً لأهوائهم المتبدلة والمتغيرة(٢)، وأهل الكتاب لم يعيروا هذه الآيات انتباهاً، فلا يستند وحي كتب بني إسرائيل على تعليم نبي مؤسس واحد بعينه، بل ينمو نموا مطردًا خلال خمسة عشر أو عشرين قرناً محمولاً على أجنحة التاريخ. وأمكن تمييز مراحل النبوة داخل العهد القديم، في عشر مراحل حتى يوحنا المعمدان.ومن ثمّ فالقول عن تحريف الكتاب في الوحي الإسلامي لا يشكل خطورة عندهم، بل يشكل ضيق فهم من الرسول لأنه لم يفهم أن التغيرات كانت تطورات وليست تغيرات، وبينهما بون شاسع.

نخلص من هذا كله إلى القول بأن الوحي له معانٍ متغايرة بحسب نوع الدين وطبيعته، وأنه ممكن عقلياً وفلسفياً وفكرياً ، وأن السبب الحقيقي في إنكار الدين هو إنكار الوحي وقد لفت الوحى القرآني الانتباه إلى هذه الإشكالية حين قال:" وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ "(الأنعام:٥٣) وكذلك قوله تعالى:" أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ ذِكْرِي بَلْ لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ"(ص:٨) وكذا قوله تعالى:" أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ"(القمر :٢٥) وغيرها كثير، وكان هذا التأكيد القرآني على أن القرآن وحي من الله عبر الملاك جبريل على قلب الرسول ضرورة لإزالة الريب والشكوك في قلوب المشككين والمناوئين ، وقد ضُرب بكل هذا عرض الحائط في الصراعات السياسية، وقد تآكلت الأمة الاسلامية من الداخل، ولليوم تتآكل حتى صارت كغثاء السيل تماماً بتمام.

١- هناك فروق واضحة وجلية بين التشريع السياسي والتشريع الديني التعبدي، فالسياسي يكون بيد البشر وهو متغير ومتجدد بحسب حاجات الناس المتغيرة ، فمثلاً نظام الحكم في الدولة الزراعية سيتغير عن الحكم في الدولة الصناعية والتجارية ، والدولة الحديثة التي تعتمد على المؤسسات في إدارة شئون البلاد، وقد رأينا أن شمال الولايات المتحدة اعتمدت إلغاء الرق في عام ١٨٦٠ ، بينما جنوب الولايات المتحدة الأمريكية لم تر ذلك ، بسبب ظروف وطبيعة الحياة الاقتصادية ، ونشبت الحرب بينهما ، وتم في النهاية القضاء على الرق، وبقي التمييز العنصري قائماً – ربما لليوم - وهذا التشريع السياسي يتوقف على عوامل عدة.
أما التشريع الديني فهو لا يتبدل بحسب طبيعة الظروف والحياة ، فلم تتغير الديانة اليهودية ولا النصرانية بسبب التقدم العلمي وتوافر التقنية والمعلوماتية ، ولكن تغير التشريع الديني في العالم العربي والإسلامي بحسب ظروف التطور السياسي، ولا يقتصر الأمر فقط على الخلافات التي قامت عقب موت الرسول مباشرة بشأن سقيفة بني ساعدة أو عقب مقتل عثمان ، بل إن الأعوام التي تلت وفاة يزيد بن معاوية كانت أشد الأعوام في حياة المسلمين فقد:" مضى على الأمة اثنتان وعشرون سنة (٦٤- إلى سنة ٨٦) وهي مصابة بالفتن والاضطرابات في معظم الجهات الإسلامية يقتل بعضهم بعضاً . كل عظيم يريد السلطان لنفسه لا يخشون عاقبة ولا يراعون الله في أمتهم عهداً كأنهم لم يقرأوا كتاب الله ولم يعلموا المأثور عن رسوله في كراهة الفتن والدخول في غمارها ولا نخلي ولاة أمرها من تبعة تلك الحوادث ؛ فإنهم أرادوا أن يسوسوها بالعنف ويكرهوها على الطاعة إكراهاً من غير أن يتقربوا إلى قلوبها بشيء مما تحبه ". محمد الخضري :الدولة الأموية ، المكتبة التوفيقية ، د.ت، ص٤٦٦.
ولليوم تظل الاختلافات السياسية قائمة غير أن الأشكل في العالم العربي الإسلامي هو إدخال الدين في منظومة التغيرات السياسية ، فكل فريق يريد أن يطوّع الوحي كما يشاء ليساند مذهبه الذي يحقق له إمكانية الوصول للسلطة وهذا ما نؤكد عليه في هذا السفر .
٢- انظر في ذلك :(البقرة:٧٥/٧٩، النساء: ٤٦، المائدة:٤١/١٣)

الوحي ووجوهه:

- هناك طريقة الكلام المباشر من الله إلى الإنسان، عن طريق الاستماع إلى كلام الله دون رؤيته، فقد اصطفى الله موسى وكلّمه تكليماً دون أن يرى موسى اللهَ. قال تعالى:" ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"(الشورى:٥١) وأشار إلى الحديث مع موسى قائلاً:" وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا"(النساء: ١٦٤)

وتخبرنا سورة المائدة عن حوار دار بين الله تعالى وعيسى بن مريم، ولم نفهم كيفية هذا الحوار الذي دار، فقد نقله القرآن بالحكاية والحوار يقول: " وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ* مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"(المائدة: ١١٦-١١٧)

- وهناك طريقة أخرى يحلُ فيها الإله في الإنسان ويتقمص فيها روح الله روح إنسان مختار(روح الرب نطق فيّ بكلماته على لساني) مثل حالة النبي صموئيل. وهذه الطريقة لا نقبلها؛ لأننا نرفض – كمسلمين- حلول الإلهي في الإنساني. لكننا نؤمن بوجود نوع من الاندماج بين الوسيط وهو جبريل والنبي محمد.

"في المسيحية نجد أن المسيح هو كلمة الله أو هو الله نفسه متجسدًا في بشر، فالوحي هنا ليس فقط الكلمات والعبارات التي يقولها يسوع، بل الوحي هو يسوع نفسه ،فهو كلمة الله تعالى، ولذلك نجد أن الأناجيل هي وصف لحياة يسوع في الأيام الأخيرة لحياته، وبذا صار يسوع إلى كتاب مقدس مقروء، مما كشف عن أهمية وجود نص مقدس لاستمرارية الدين."([1])

في المسيحية نجد أن الكلمة صارت بشراً، أما في الإسلام فإن الكلمة تحولت إلى كتاب. ولا يتحدث محمد عن التداخل الإلهي مع البشر – حاشاه- فمحمد رأى وسيطاً هو جبريل جاء من عند الله الذي قرأ عليه رسالة الله وكلامه (القرآن الكريم) الذي صار عند المسلمين حقيقة إلهية مطلقة، فهو كلام الله الحرفي المنزل" إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى"(النجم :٤)(آل عمران :٧) (النساء :١٠٥)

١- د. محمد عثمان الخشت: للوحي معانٍ أخرى، صـ ١١٦.

والوحي في الاصطلاح الإسلامي يتسق مع معناه اللغوي في العربية، حيث نجد أن معنى الوحي الإعلام في خفاء، والإشارة السريعة، وذلك يكون بالكلام على سبيل المجاز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة"[1]

مما سبق يتضح أن الوحي له مظهر يختلف من دين إلى آخر، وباختلاف المظهر يختلف المضمون الموحى به من دين إلى آخر، كما يختلف المضمون عبر الوسيط، فقد زعمت اليهود أنها لا تقبل قرآن محمد لأنه جاءه عبر عدوهم الذي كان يأتيهم بالعذاب وهو جبريل عليه السلام.

أقسام الوحي في القرآن الكريم:

١- ما يبلغه الله إلى أنبيائه.كما في قوله تعالى:" إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا"(النساء:١٦٤)

٢- وحي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام، وسمِّي وحياً لأن الملك أسره على الخلق وخصَّ به النبي المبعوث إليه، كما في قوله تعالى: " ومَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"(الشورى:٥١)

٣- وحي إلى الأمم بوساطة الرسل، قال تعالى: " وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ" (الأنبياء:٧٣)

٤- الأمر: مثل قوله تعالى:" بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا" (الزلزلة:٥) أي أمرها في قول المفسرين ومثل قوله: "وأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا" (فصلت:١٢) أي أوحى فيها ما أراده وما أمر به فيها، وقوله :" وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ" (المائدة:١١١) أي أمرتهم وهو أمر تكوين.

٥- التسخير: مثل قوله تعالى في قول بعض المفسرين: " بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا" (الزلزلة:٥) أي سخرها.

٦- الإشارة: مثل قوله تعالى :" فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً (مريم:١١(وقال الكلبي وقتادة وابن منبه :أوحى إليهم أي أشار إليهم. وقال القتبي: أومأ.

٧- الكتابة: مثل قوله تعالى أيضا في رأي بعض المفسرين: " فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً" (مريم:١١) قال مجاهد: كتب على الأرض، وقال عكرمة: كتب في كتاب.والوحي في كلام العرب الكتابة.

٨- الإلهام: فالإلهام من أنواع الوحي : مثل قوله تعالى :" وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ "(النحل:٦٨) ومنه على قول بعض المفسرين :" :" وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلى

١- الراغب الأصفهاني: المفردات ،المكتبة التوفيقية ، ٢٠٠٣م، صـ ٥٣٠.

الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي" (المائدة: ١١١) أي ألهمتهم. وقال بعضهم: أتيتهم في الوحي إليك بالبراهين والآيات التي استدلوا بها على الإيمان، فآمنوا بي وبك، ومثل: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ"(القصص:٧) أي ألهمناها في قول بعض المفسرين. ونحن لا نرى هذا، فقد شملت الآية العديد من الأخبار مرتبة ومسلسلة ولها تدرج زمني وخطوات محددة واثقة ومأمونة، فلا يكون الوحي – كما أرى بهذا المعنى، بل يكون بمعنى أعلمناها. وهنا نقول: قد يكون الإعلام جزئياً على مراحل للاطمئنان ثم جاء الإخبار عنه هنا كلياً كعادة القرآن؛ إذ يُفصِّلُ في موضع ويُجمِلُ في آخر.

٩- القذف في القلب: ففي قول بعض المفسرين أن قول الله عز وجل: " وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ" معناه هنا: إلقاء الله في قلبها. وما بعد هذا يدل عليه والله أعلم – على أنه وحي من الله على جهة الإعلام للضمان لها: " إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ المُرْسَلِينَ". وقيل إن معنى الوحي هنا الإلهام، وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها، وأنه يكون مرسلاً، ولكن الإعلام أبين في معنى الوحي ههنا.

١٠- يسُر أو يوسوس: مثل قول الله تعالى: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ" (الأنعام: ١١٢) معناه يسُر بعضهم إلى بعض، وقيل: يوسوس به شياطين الجن إلى شياطين الإنس. وسمي وحياً لأنه إنما يكون خفية. والمعنى نفسه في قوله تعالى :" وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ"(الأنعام: ١٢١)

١١- الإبلاغ: مثل قوله تعالى: " وَلا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا " (طه: ١١٤) أي إبلاغه. وكان يعجل بذكر الوحي ويحرك لسانه به، إذا نزل عليه من حبه له، ومخافة أن ينساه، فنُهى عن ذلك حتى يجتمع؛ لأن بعضه مرتبط ببعض، فنزلت الآية.

أرى من خلال العرض السابق وغيره من سياقات متعددة في القرآن الكريم الذي بين أيدينا، أن القرآن قد شُغل في الكثير من المواطن بالحديث عن القرآن، والتأكيد على قدسية النص والتشديد على نسبته لله تعالى، وهذا قد يعود في اعتقادي إلى المناخ العام الذي نزل فيه القرآن في مكة وما حولها.

المبحث الثاني: حجية السنة والقرآنيون:

قال تعالى:" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل :٤٤) وقال تعالى:" فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (النور:٦٦) وقال

تعالى :" وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " (الشورى:٥٢) وفرض طاعته في غير آية من كتابه وقرنها عز وجل وقال تعالى:" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ".(الحشر:٧)

روى أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله أنه قال: " ألا وإني قد أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه" ([1])

قال عبد الله بن عمر بن عبد الرحمن الخطابي: قوله: أوتيت الكتاب ومثله معه يحتمل وجهين من التأويل:

أحدهما: أن معناه أنه أوتي الوحي الباطن غير المتلو، مثلما أعطى من الظاهر المتلو.

ثانيهما: أنه أوتي الكتاب وحيا يُتلى، وأوتي من البيان مثله، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص ويزيد ويشرع ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن.

وهذه أقوال مردودة وإن ذكرها الإمام القرطبي، فالحديث عن أن للقرآن ظاهراً وباطناً من كلام الشيعة، وهم لم يقولوا إن الرسول يعلم الباطن والظاهر، لكنهم قالوا إن الأئمة وحدهم لديهم علم الباطن والظاهر، وهذا كله كلام مردود، مع تحرزنا الشديد من الخوض في مراد الله بكلماته، وإنما القول هنا عن إنغلاق الفهم البشري للقرآن بحجة قصر فهمه على طبقة معينة وهذا يشبه طبقة البراهمة في الهند، ولعل نشوء تلك الأفكار جاء موافقاً لمثل تلك الفلسفات الشرقية القديمة.

والآيات التي في القرآن تتحدث عن التشديد على أن الرسول موحى إليه هذا القرآن وتطالبه بالتبليغ كثيرة، وبالقطع إن كان الرسول هو البشري الوحيد في الجزيرة العربية – والعالم – الذي اصطفاه الله تعالى برسالاته حيث قال: " وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ "(الأنعام:١٢٤) وقد ناقشنا المنافسة والحقد على ذات الرسول في أن يوحى إليه من بينهم،

١- أخرجه أحمد في مسنده ١٣١/٤، وأبو داود في كتاب السنة ، باب لزوم السنة ٢٠٠/٤ رقم ٤٦٠٤.

obeikandl.com

ومما لا شك فيه أن الله يطلع رسوله على الكثير من التشريعات، فالمعروف لدى علماء القرآن الذين يؤمنون بالنسخ في القرآن الكريم أن هناك نوعاً من النسخ يسمى نسخ السنة للقرآن، ونوع آخر يسمى نسخ القرآن للسنة، وهذا يعني أن هناك سنة وقرآناً، وقد يختلفان في بعض التشريع فينسخ أحدهما الآخر، والمشهور نسخ القرآن بالقرآن ونسخ السنة بالسنة، وهذا قيل عنه إنه التدرج في التشريعات التي تخالف ظاهر ما كانت عليه العرب إبان الدعوة الإسلامية، ورغبة الدين الإسلامي في تطهيرهم من تلك الأشياء.

غير خافٍ أن السنة تحتل مكاناً متميزاً من التشريع الإسلامي، ولا ينكرها إلا جاحد.

قد شنَّ البعض حملة على حجية السنة في التشريع الإسلامي، وقد جمع الحجج وفندها ورد عليها الأستاذ الدكتور: عبد العظيم المطعني في كتابين متتالين نشرهما المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وسأورد أهم تلك الشبهات وليرجع إلى هذين الكتابين من أراد الاستزادة.
يؤكد الدكتور المطعني أن سبب الحملة على السنة النبوية ما يأتي:
أولاً: مركز ابن خلدون للدراسات، ووصفه أنه وكر استعماري جديد.
ثانياً: النظام العالمي الجديد.
ثالثاً: استثمار آثار العنف.
رابعاً: الصحف الجديدة.

ويؤكد الدكتور المطعني أن غرض هؤلاء جميعاً تركز في محورين هما:
المحور الأول: الدعوة إلى إلغاء الفقه الإسلامي؛ لأنه في نظرهم فقه متخلف رجعي.
المحور الثاني: الدعوة إلى إلغاء السنة النبوية؛ إما لأنها مزورة عن رسول الله، وإما لأنها ليست من الدين في شيء.(١)
يفند الدكتور المطعني الشبهات المثارة ويقسّم الأهداف المرادة من تلك الشبهات إلى ثلاثة أقسام رئيسة هي:
القسم الأول: شبهات يُراد بها مجرد التشكيك في صحة الأحاديث النبوية، وفي نسبة صدورها من النبي.
القسم الثاني: شبهات يراد بها محو السنة من الأساس.
القسم الثالث: أرادوا منها عزل السنة عن حياة المسلمين حتى وإن صحت الأحاديث المروية فيها.(٢)

١- د. عبد العظيم المطعني: الشبهات الثلاثون المثارة لإنكار السنة النبوية ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ٢٠١٠م، صـ ٤-١٢ بتصرف شديد(ملخصا).
٢- المصدر السابق، صـ ١٣.

أهم تلك الشبهات :

١- النهي النبوي عن كتابة الحديث، وهي شبهة قديمة لأن النبي أمر بذلك في مرحلة التدوين الأولى؛ خشية الالتباس بين القرآن والسنة، ثم أذن بعد ذلك بالتدوين.(١)

٢- ادعاء النهي القرآني عن الإيمان بالسنة والعمل بها، وهي شبهة تناقض القرآن في الكثير من الآيات.

٣- منع الخلفاء رواية الحديث وترديده، والذي عليه العلماء الثقات أنهم لم يمنعوا بل رفضوا الإكثار من الرواية؛ لئلا يُشغِل ذلك الناسَ عن القرآن فحسب.

٤- تشدد الخلفاء في الرواية وحبس المكثرين منها، كان هذا على سبيل الأمانة العلمية والتحوط فقط.

٥- تأخر تدوين السنة، يرد عليها أحاديث الإذن بكتابة السنة.

٦- إحراق كتب بالسنة، حدث بسبب المغالطة وخشية التقول على الرسول(ص) ما لم يقل.(من باب الورع)

٧- السنة دونت في قصور الأمراء. لا يستحق عناء الرد.

٨- الرواية بالمعنى دون اللفظ، وهو مأخوذ - فيما يبدو لي- من كتب علماء النحو الذين قالوا ذلك، وهو مردود على علاته.

٩- اقتحام السنة حواجز الغيب، كالتبشير بالجنة، وأقول: إنه توقيف من الله أو استنتاج جيد من الرسول، وقد أعلمه الله بعض الماضي والحاضر والمستقبل.

١٠- رواة السنة بشر غير معصومين، ولهذا فهناك علم الجرح والتعديل.

١١- ندرة الصحيح في محفوظ البخاري، وهذا له لا عليه؛ إذ فند الصحيح من غيره وأثبته، ولذا سمّى كتابه الصحيح.

١٢- البخاري ومسلم لم يسلما من النقد، ولكنهما اعتمدا شروطاً كافية للتدليل على صحة الحديث، وما خالف تلك الشروط، كان موضع النقد فقط.

١٣- السنة ليست وحياً، ولكنها تخرج من ذات المشكاة.

١٤- ندرة الاستدلال بالحديث عن أبي حنيفة، وإن يكن فليس أبو حنيفة حجة على الرسول بل العكس، وأبو حنيفة كان يقدِّم الحديث (النص) على الرأي.

١٥- ضياع خمسمائة خطبة نبوية، وهذه تشبه قول الشيعة (بعضهم) ضياع ٥٠٠ آية قرآنية تذم بني أمية.

١٦- مصدر السنة ليس معصوماً، وهي شبهة مكررة .

١٧- الطعن في رواة السنة، علم استحدثه العلماء للتثبت من كل راوٍ.(الجرح والتعديل)

١- قد ذهب فريق من العلماء أن الرسول منع التدوين، وفريق آخر أنه أباح لهم التدوين، والعلماء يوفقون بينهما بالقول بأنه منع أولاً ورخص ثانياً.(قول نسخ قولاً آخر)

١٨- أُمية أبي هريرة وتأخر إسلامه، وقيل إنه كان يُصرع، وقيل عنه كثيراً غير ذلك، وفند العلماء ذلك كثيرًا فلا داعي للإطالة.(ثم إنه كان يحفظ ولم يكن يكتب، فالعلم عنده علم صدور لا علم سطور)
١٩- نقد السند دون المتن، وهذا باهت، وغير صحيح.
٢٠- ندرة المتواتر في السنة، من يقول هذا جاهل، فللحديث طرق معروفة في كتب الحديث يعرفها علماؤه، لا المنكرين له.
٢١- ظنية الحديث.
٢٢- هداية السنة ظرفية ليست دائمة.
٢٣- اليوم أكملت لكم دينكم.
٢٤- الاكتفاء بالقرآن عن السنة .
٢٥- عدم الاعتداد بالسنة في الدرس اللغوي.
٢٦- مخالفة السنة للواقع المشاهد.
٢٧- مخالفة السنة للعقل.
٢٨- مخالفة السنة للقرآن.
٢٩- الوضع في الأحاديث.
٣٠- جامعو السنة كتبوها مكرهين. (هذه الشبهة معتمدة على ترجمة نصوص خطأ)
٣١- السنة لا تستقل بالتشريع.
٣٢- منع العمل بآحاد الحديث.
٣٣- السنة ليست حجة في الدين.

يقول الإمام القرطبي: " جعل الله إلى رسوله بيان ما كان منه مجملاً، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى:" وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ" (النحل/٤٤)
في البيان منه صلى الله عليه وسلم: على ضربين. (١)
بيان لمجمل في الكتاب، كبيانه للصلوات الخمس في مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها، كبيانه مقدار الزكاة ووقتها وما الذي تؤخذ منه من الأموال، وبيانه لمناسك الحج؛ قال الرسول إذ حج بالناس:" خذوا عني مناسككم"(٢)
وقال:" صلوا كما رأيتموني أصلي"(٣)

وروى سعيد بن منصور: حدثنا عيسى بن يونس عن الأوزاعي عن مكحول قال: القرآن أحوج إلى

١- القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ، مج١ ،صـ ١٢.
٢- أخرجه مسلم في كتاب الحج ٩٤٣/٢(رقم ١٢٩٧)
٣- (البخاري ١١٧/١)

obeikandl.com

السنة من السنة إلى القرآن. وبه عن الأوزاعي قال: قال يحيي بن أبي كثير: السنة قاضية على الكتاب والكتاب ليس قاضٍ على السنة.(١)

ومن السنة: تحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها "(٢)

وتحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع... الخ.

قد لا نستقصي طويلاً هذا الأمر، فهو مكرور – كأغلب كلامنا وموضوعاتنا- وأرى أنه ليس وليد اليوم، بل وليد اللحظة الجنينية لبدء البعثة ونزول الرسالة، فقد قال الناس أينزل الذكر عليه من بيننا؟ كيف يختار الله هذا الفقير الضعيف دوننا، ونحن ما نحن في المال والقوة؟

فالأمر أولاً وآخراً أنهم نَفَسَوها عليه، وكانت الصراعات التي تلي ذلك صراعات على الحكم وهي صراعات قبلية صريحة وقد صارت الخلافة – في غفلة من الزمان لأبي بكر الصديق(٣) – في تيم ثم في عدي، ثم في بني أمية، ثم في بني هاشم ثم... ثم..

ولليوم يظل الحكم ذات مرجعية دينية، وقد قيل: إن السلطان يثبت بالدين، والدين يحكم بالسلطان. وأخبر فقهاء السلطان أن: الله يثبت بالسلطان ما لا يثبت بالقرآن، وهذه كلها أوهام فقهاء السلطان.

فمن يريد إنكار الوحي ويثبت أنه كان نتيجة صرع مرضي واختلاج عقلي، ومن يريد إنكار حجية السنة النبوية في التشريع الإسلامي، إنما يريد القضاء على الدين نفسه، والناس اليوم صارت لا في جاهلية كما يدعي الإخوان المسلمون، وأنهم سيخرجونهم من تلك الجاهلية، وإنما الناس في جهل عن الدنيا وعن الدين، ولعل أهل الحكم يريدون هذا الجهل المتفشي كمرض يُلهي الناس عما يحدث في الليل من تدبير الأمور، وليتهم يصلحون لسياسة الناس، بل أمرهم كما قال أبو العلاء المعري:

١- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ، مجـ١، صـ١٣.

٢- (البخاري ٢/١٠٨٢رقم ١٤٠٨)

٣- يروى في مجمع الأمثال هذه الحادثة:" إن أول من قال :" إنَّ البلاء مُوكل بالمنطق أبو بكر الصديق ، فيما ذكره بن عباس ، قال : حدثني علي بن أبي طالب (ض) أنه لما أُمِرَ رسول الله أن يعرض نفسه على القبائل خرج وأنا معه وأبو بكر ، فدُفعنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر وكان نسّابة فسلّم فردوا عليه السلام ، فقال: ممن القوم ؟ قالوا: من ربيعة ، فقال: أمِنْ هامتها أم من لهازمها؟ قالوا : من هامتها العظمى ، قال: فأيُّ هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذُهْل الأكبر ، قال: أفمنكم عَوْف الذي يُقال له لا حُرّ بوادي عوف؟ قالوا :لا، قال: أفمنكم بسطام ذو اللواء ومنتهى الأحياء ؟ قالوا: لا ؟ قال: أفمنكم جَسّاس بن مُرّة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا، قال أفمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالبها أنفسها؟ قالوا : لا، قال: أفمنكم المُزدلف صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا، قال : أفأنتم أخوال الملوك من كندة؟ قالوا: لا، قال: فلستم ذُهلا الأكبر ،أنتم ذهل الأصغر ، فقدم إليه غلام قد بَقل وجهُه يقال له دغفل فقال:

إنَّ على سائِلنَا أنْ نسأله والعبء لا تعرفه أو تحمله

يا هذا ،إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً فمن الرجل أنت؟ قال: رجل من قريش، قال : بخ بخ أهل الشرف والرياسة ، فمن أي قريش أنت ؟ قال: من تَيم بن مرّة ، قال: أمكنت والله الرامي من صفاة الثغرة،أفمنكم قصي بن كلاب الذي جمع القبائل من فهر وكان يدعى مُجمّعا؟ قال: لا، قال :أفمنكم هاشم الذي هشّم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتُونَ عَجاف؟ قال: لا، قال: أفمنكم شيبة الحمد مُطعم طير السماء الذي كأن في وجهه قمرا يضيء ليل الظلام الداجي ؟ قال : لا، قال : أفمن المفيضين بالناس أنت؟ قال : لا، قال: أمن أهل النَّدوة أنت؟ قال: لا، قال: أفمن أهل الرِّفادة أنت ؟ قال :لا، قال أفمن أهل الحجابة أنت؟ قال : لا، قال: أفمن أهل السِّقاية أنت ؟ قال : لا ، قال: واجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله (ص)، فقال دغفل: صادف ذراً السيل ذراً يصدعه ،أما والله لو ثبتَّ **لأخبرتك أنك من زمعات قريش** أو ما أنا بدغفل، قال: فتبسم رسول الله ، قال علي: قلت لأبي بكر: لقد وقعت من الأعرابي على بائقةٍ ، قال: أجل إن لكل طامة طامة ، وإن البلاء مُوكل بالمنطق." محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني : مجمع الأمثال ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مكتبة السنة المحمدية ، ١٩٥٥م، مجـ١، صـ٨.١ويستفاد من هذا أن نكرة مثل أبي بكر الصديق في الجاهلية صار في الإسلام الحاكم المطلق اليد في شئون الجزيرة العربية يُسَير الجيوش وتأتيه الغنائم، ويجمع القرآن في مصحف ، ويصير قوله وبعض أفعاله من التشريع.

يسوسون الأمـور بغير عـقل فيفسد أمرهم ويقال ساسة
فـأفٍ للحـياة وأفٍ مـنـي ومـن زمن رياسته خساسة

هذا الزمن الذي انتهى إلى رياسة الخساسة، لا يتكتم على نفسه مصائبه، بل يُحشر الدين فيها حشراً باعتباره عملاً من عبقرية محمد (ص)، جاء به فأسس دولة ومدنية وحضارة عظيمة وقد ساهمت الأمم من حول الجزيرة في تطور وتقدم تلك الحضارة فلمَ لا يكون للمؤسس مثل ذلك الأمر العظيم وقد انتشروا في العالم كله ؟

أقول: إن سبب عدم المضاهاة بين محمد والمؤسس أن محمدا كان يعمل في النور لأجل إخراج الناس من الظلمات إلى النور، أما المؤسس فكان يعمل في الظلام لأجل إعادة الناس من النور إلى الظلمات، وشتان ما بينهما من فروق.

obeikandl.com